# الحياة الاجتماعية في الحيرة

مقال مستل من كتاب « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

تأليف يوسف رزق الله غنيمه
وزير مالية العراق سابقاً

—٢—

كان لحانات الحيرة شهرتها الطائرة يقصدها اهل القصف واللهو من سكان المدن والبدو ولا بأس ان ننقل هنا بعض حوادثها للتفكهة والفائدة

قال المغيرة بن شعبة : كنت في ركب من قومي في طريق لنا الى الحيرة فقالوا لي قد اشتهينا الخمرة وما معنا الاّ درهم زائف نقلت هاتوه وهلموا زقين فقالوا واما يكفيك لدرهم زائف زق واحد قلت اعطوني ما طلبت وخلاكم ذم ففعلوا وهم يهزؤن من قولي فصببت في احد الزقين شيئاً من ماء ثم جئتُ الى خمّار فقلت لهُ كِلْ لي ملء هذا الزق فلاّ ه فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيتهُ اياهُ فقال لي ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً وهذا درهم زائف فقلت انا رجل بدوي وظننتُ ان هذا يصلح كما ترى فان صلح والاّ خذ شرابك فاكتال مني ماكالهُ وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيهِ من الماء فافرغتهُ في الزق الآخر وحملتهما على ظهري وخرجتُ فصببتُ في الزق الاول ماء ودخلت الى خمّار آخر فقلت اني اريد ملء هذا الزق خمراً فانظر الى ما معي منهُ فان كان عندك مثله فاعطني فنظر اليهِ وانما اردت ان لا يتعرب بي اذا رددت الخمر عليهِ فلما رآه قال عندي اجود منهُ قلتُ هات فاخرج اليَّ شراباً فاكتلتهُ في الزق الذي فيهِ الماء ثم دفعت اليهِ الدرهم الزائف فقال لي مثل قول صاحبهِ فقلت خذ خمرك فاخذ ماكالَ لي وهو يرى اني خلطتهُ بالشراب الذي اريتهُ اياهُ وخرجت فجعلتهُ مع الخمر الاول ثم لم ازل افعل ذلك بكل خمار في الحيرة حتى ملأت زقي الاول وبعض الآخر ثم رجعت الى اصحابي فوضعت الزقين بين ايديهم ورددت درهمهم فقالوا ويحك اي شيء صنعت فحدثتهم فجعلوا يعجبون[1]

ومن الشعراء الذين ذكروا خمرة الحيرة والسكر فيها عبدالله بن ايوب التيمي احد الظرفاء الوصّافين في الدولة العباسية قال[2]

هل الى سكرة بناحية الحيـ ـيرة شنعاء يا قبيص سبيل
وابو النيجان في كفة القر عة والرأس فوقهُ اكليل

---

(١) الاغاني ١٤ : ١٣٥ (٢) كذلك ١٨ : ١١٩

وعراد كأنهُ بيذق الشطرنج يفتنُّ فيهِ قال وقيل

ومن نوادر الخمارين في الحيرة بعد الفتح ان الأقيشر شرب يوماً في بيت خمار في الحيرة فجاء شرطي من شرط الامير ليدخل عليهِ فغلق الباب دونهُ فناداهُ الشرطي اسقني نبيذاً وانت آمن فقال والله ما أمناك ولكن هذا ثقبٌ في الباب فاجلس عنده وأنا اسقيك منهُ ثم وضع لهُ انبوباً من قصب في الثقب وصبَّ فيهِ نبيذاً من داخل والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر فقال الأقيشر :

سأل الشرطي ان نسقيه فسقيناهُ بانبوب القصب
انما نشرب من اموالنا فعلوا الشرطي ماهذا الغضب[1]

ولع الحيريون بالصيد والقنص وخرج اليهِ ملوكهم وامراؤهم واشرافهم وشبابهم. وتروى الاخبار والاشعار الكثيرة في وصفهِ وحوادثهِ فاقتصرنا على الالماع اليهِ في هذا المقام للايجاز

ولا بدَّ لنا هنا من كلمةٍ عن القيافة التي اشتهر العرب بها وهي معرفة الانسان والحيوان من آثاره في الرمل او التراب [2] وقد مارسها الحيريون وها نحن نورد حكايتين عنها اولهما ان امرأة مرثد بن سعد بن مالك شغفت بابن اخيهِ عمرو بن قمئة الشاعر المشهور وراودتهُ يوماً عن نفسهِ في شباب عمهِ فامتنع وارادت الايقاع بهِ عند عمهِ فكفأت جفنة على اثر بن قمئة . ولما رجع عمه اخبرته ان رجلاً من قومه قريب القرابة جاء يستامها نفسها ولما سألها عنهُ اجابتهُ: أما انا فلا احبه ولكن قم فافتقد اثره تحت الجفنة فلما رأى الاثر عرفه[3]

والحكاية الثانية : ان المرقش الاصغر كان يهوى فاطمة بنت الملك المنذر صاحب الحيرة وكان لفاطمة قصر يحرسهُ الحرس وينثرون التراب حول قبتها ويحرُّون عليهِ نوباً حين تمسي ولا يؤذن لاحدٍ بالدخول عليها الا جارية لها تعرف ببنت مجلان . فخمات الجارية ليلة ما المرقش على ظهرها واخذتهُ الى سيدتها فلما اصبح الصباح بعث الملك بالقافة لينظروا وعادوا اليهِ فقالوا نظرنا اثر بنت مجلان وهي مشتقة . [4] والظاهر ان هذه الحكاية موضوعة ملفقة ولكن تدل دلالة اكيدة على القيافة والعمل بها في الحيرة

اعتقد اهل الحيرة بالخرافات والرواقي شأن الامم القديمة ولا تزال بقايا تلك العقائد عند اغرق الشعوب في المدنية الآن مما ورثوه من السلف وفي ذلك يقول عدي بن زيد[5]

لو تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوفَ الرواقي

وقد تغلغلت هذه العقائد في الطب عندهم ومنها انهم كانوا يعتقدون ان دماء الملوك تشفي من الجبل [6] والكلب [7] والحية[8] وقال المتلمس

(١) كذلك ١٠ : ٨٦ (٢) زيدان آداب اللغة العربية ١ : ١٨٩ (٣) الاغاني ١٦ : ١٥٨ (٤) كذلك ٥ : ١٨٤ (٥) شعراء النصرانية ٤٥٤ (٦) الاغاني ١٤ : ٧٢ (٧) الميداني مجمع الامثال ١ : ١٥٨ في مثل « خطب يسير في خطب كبير » (٨) الاغاني ١٤ : ٧٢

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المحية والخبل

وقال المنقب العبدي [١] :

يا جريّ الدمّ مرّ طلسمهُ يبرؤ الكلب اذا عضّ وهرّ

وعلى ذكر الطب نسرد على سبيل المثال بعض ما كانوا يطببون به . يعالجون بالكي من كان يطعن من الفمّ أو يصعق بخبر أو حادث ينزعهُ [٢] ولا يزال أهل العراق يأخذون بهذه الوصفة حتى اليوم . وقد كان قسوس النصارى يتعاطون الطب في الحيرة قال أبو الفرج الأصفهاني بينما المتوكل الليثي بالحيرة ومد رمداً شديداً فرّ به قس منهم فقال مالك ؟ قال رمدتُ — قال أنا أعالجك قال فافعل فذرّه [٣] واستعمل اطباؤهم السعوط واللدود

قال شاعرهم عدي بن زيد [٤] :

والاطباء بعدهم لحقوهم ضلّ عنهم سعوطهم واللدود

وعالجوا الجرب في الابل بالطلاء بالقار ولا تزال هذه الوصفة عند عرب البادية حتى اليوم قال النابغة الذبياني مخاطباً النعمان في قصيدة [٥]

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطليٌّ به القارُ أجربُ

ويجمل بنا أن نذكر هنا ان البيطرة كانت معروفة في الحيرة لمداواة الحيوانات قال الذبياني [٦]

شكّ الفريصة بالمدرى فأنفذها طعن المبيطر إذ يشفي من العضد

وكانوا يداوون العُرّ وهي قروح تخرج في عنق الفصيل بكيّ بعير آخر صحيح فيبرأ العليل بل قيل انهم كانوا يكوون الصحيح للصاقة لئلاّ يتعلق به المرض وليس ليفيق العليل وفي ذلك يقول الذبياني [٧]

لكلفتني ذنب امرئ وتركتهُ كذي العُرّ يكوى غيره وهو راتع

ومن عاداتهم انهم كانوا يجعلون الحلي والخلاخل في بدّ من تلدغهُ الأفعى ويسمون الملدوغ السليم تفاؤلاً . ويحركون تلك الحلي لئلاّ ينام فيدبّ السم فيه وقال بعض الأعراب إذا لدغ الرجل علقنا فيه الحلي سبعة ايام لتنفذعنهُ الحمة وإشارة إلى هذه العادة انشد النابغة الذبياني

يُسَهَّدُ من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع [٨]

ومن عادة أشراف الحيريين انهم يرسلون أطفالهم للرضاعة والتربية إلى بيوت معارفهم أو من يعتمدون عليه من أخصائهم . وكانت هذه عادة العرب في غير الحيرة ايضاً ولا تزال قائمة

---

(١) شعراء النصرانية ٤٠٤ (٢) الميداني مجمع الامثال ١ : ١٥٨ في مثل ٥ تديضرط العير والمكواة في النار» (٣) ١١ : ٤٠ (٤) شعراء النصرانية ٤٧٢ (٥) كذلك ٦٥٦ (٦) كذلك ٦٦١ (٧) كذلك ٦٩٣ (٨) كذلك ٦٩٠

حتى اليوم عند بعضهم . ولما ملك المنذر جعل ابنهُ النعمان في حجر عديّ بن زيد[١] ووضع المنذر بن ماء السماء ابناً له اسمهُ مالك عند رزارة[٢] وترك الاسود بن المنذر ابنه شرحبيل عند سنان بن ابي حارثة المري ترضعه زوجه[٣]

لنقف قليلاً عند اولاد الحيريين ونرى العابهم وملاهيهم . نراهم يلعبون بالدوّامة وهو «المصراع» بلسان العراقيين اليوم تصحيف «المرصاع» الفصيح قال المتلمس[٤]

وتظلُّ في دوّامةٍ م المولود يظلمها تحرّقُ[٥]

ومثلها لعبة الخذروف المنتشر يومئذ عند العرب وفيها يقول امرؤ القيس في معلقته

درير كخذروف الوليد امرّه تتابع كفّيه بخيط مُوصَّل

والخذروف لعبة مستديرة يديرها الصبيان بخيط ادخل في ثقبه وفتل . ولعبوا بالكعاب على ما نراه حتى اليوم عند أولاد العراقيين وغيرهم فقد جاء ان المرقش كان يهوى ابنة عمه اسماء فذهب الى أحد الملوك وفي غيابه زوّجها عمه من رجل آخر فغبره اخرته عند عودته انها ماتت ودفنوا عظام كبش في قبر وهّمره انهُ قبرها فأخذ يزوره فبينما هو مضطجع ذات يوم وابنا اخيه يلعبان بكعبين لهما اذ اختصما في كعب فقال أحدهما هذا كعبي اعطانيه أبي من الكبش الذي دفنود وقالوا اذا جاء مرقش اخبرناه انهُ قبر اسماء . فاطلع المرقش على الخبر من قول الولد[٦] . .

وفي الحيرة العابٌ لعبها غير الاولاد منهم . نذكر اليطّبُنَ وقيل هي النُّدر قال المتلمس من قصيدة يهجو الملك عمرو بن هند[٧]

أعني الخوؤنةَ والعموم فهم كالطّبْنِ ليس لبيته حُوَلُ

ومن العابهم الجمرّى وهي لعبة للصبيان وهو أن يحمل الصبي بين اثنين على أيديهما ولا تزال هذه اللعبة حية بين اولاد العراقيين ويسمونها في بغداد « صندوق مالي »والبرصاء وهي لعبة لهم يأخذون عوداً في رأسه نار فيديرونهُ على رؤوسهم . وهذه موجودة في العراق ولكن اسمها غير معروف اليوم . و « الخُطّة » يخط الصبيان دائرة ويقف فيه صبي ويحيطون به ليأخذونهُ . وهي باقية في بلاد الرافدين بهذا الاسم والوصف وربما سميت في اللغة الفصحى الحاجورة ايضاً . والزحلوفة تزلج الصبيان من فوق التلّ إلى أسفله. واللعبة مشهورة في العراق ويسميها بعضهم الزحلوقة. أما الحواس فلعبة لهم بالحصى وأنشد الشاعر :

(١) شعراء النصرانية ٤١٦ (٢) الاغاني ١٦ : ١٢٨ (٣) ابن الاثير ١ : ٢٣٣ (٤) شعراء النصرانية ٣٤٦ (٥) الدوامة لعبة صبيان العرب يرمون بها على الارض بالخيط فتدوم اي تدور. يقول شاعرنا بهذا البيت لعمرو بن هند ملك الحيرة: لك هذه الدنيا وهذه القصور وانت اذا أشد من ابنك دوامة تحرق اي تشتب غضباً (٦) الاغاني ٥ : ١٨٠ (٧) شعراء النصرانية ٣٣٩ والشرق

فأسْفني حلمي فبتُّ كأنني أخو خَرَقٍ يُلْهيه ضرب الخوانس

قلنا هذه اللعبة تسمى في الموصل «الحاوسة» وفي بغداد والشام «المقلاة» يلعب فيها اثنان يأخذ كل منهما ٤٩ حصاة أو ودعة أو خرزة ويوزعها كلٌّ منهما على سبع حفر محفورة في خشبة متقابلة ويأخذ كل في دوره محتويات احدى الحفر من الحصى ويلقي حصاة في كل حفرة من الاربع عشرة حفرة وهكذا يسير في توزيعه فاذا انتهى الى حفرة فارغة وألقى فيها حصاةً . يبدأ الآخر بتوزيع الحصى وإذا انتهى إلى حفرة صار فيها حصاتان أو أربعة حصى ربح هذه الحصى وما في الحفرة المقابلة

ومن العاب الحيريين المخراق وهو منديل أو نحوه يُلوَى فيضربُ به أو يُلفُّ فيفزع به وأنشد أبو علي :

أوقت له ذات العشاء كأنهُ مخاريقُ يُدعى وسطهُنَّ خريج

قلنا ولا تزال هذه اللعبة معروفة في بغداد يسميها صبيانهم باسم تركي « قره قامجي » معناه السوط الاسود

ومن ألعابهم المِقْلاة والقُلَّة عودان يلعب بهما الصبيان فالعود الذي يضرب به هو المِقْلاة والقُلَّة خشيبة خفيفة نحو شبة الصغيرة التي تنصب ويقال لها أيضاً المقلاء والقال وأنشد الشاعر

كأنَّ زو فراخ الهام بينهم زو القلات زهاها قالة قليا

وهذه اللعبة تعرف في العراق حتى اليوم ويسميها الصبيان والبغداديون « الشطرة والبلبل » عوضاً عن المقلاء والقُلَّة[1]

كما انهم لعبوا بالنرد والشطرنج اللعبتين اللتين اخذهما العرب من العجم[2] وتعلموا لعبة الصولجان من العجم ايضاً[3]

وكان من عادة الحيريين اذا اراد الرجل منهم امراً نذر انه لا يشرب الخمر ولا يغتسل او لا يأكل اللحم او لا يعمل ذلك كله حتى يتم له الامر[4]

ولهم عادات في الموت والمناحة . فكانوا يكفنون موتاهم ويحنطونهم وتقوم نادبة تندبهم[5] وقال عدي بن زيد في النائحة :[6] سأكسب مجداً أو تقوم نوائح

وكانت المرأة عندهم اذا ناحت قائمة على زوجها علم انها لا تريد ان تتزوج بعده وهكذا فعلت عائشة بنت طلحة على زوجها الاخير عمر بن عبيد الله بن معمر[7]

ولا تتريب علينا ان مررنا بكم بطرق الحيرة وطفنا مجتمعاتها ومعمعا صور حِلَف القوم

---

(١) راجع المخصص لابن سيدة ١٣ : ١٦ — ١٩ والساق على الساق لفارس الشدياق ٨٧ للترجم
(٢) الاغاني ٨ : ٩٥ (٣) شعراء النصرانية ٤٤١ (٤) الاغاني ١٠ : ٨٦ (٥) كذلك ١٩ : ٨٨
(٦) شعراء النصرانية ٤٦٧ (٧) الاغاني ٢ : ١٣٣

معتقداتهم ومعتقداتهم واقسامهم الدالة على تقديسهم واديانهم فها اننا نسمع ملكهم المنذر يقسم لزيد بن عدي « حق سبد » وسبد صنم اهل الحيرة [١] وها اننا نسمع عبد المسيح المتلمس يحلف باللات والانصاب وهو يهجو عمرو بن المنذر فيقول [٢]

أَمُنْذِرُ دَنَّتْنِي حَذَرَ الهجاء ولا واللات والانصاب لا تَشْلُلُ

ونسمع المنذر يقسم ايضاً باللات والعُزّى ويقول بعد هلاك عدي بن زيد لما اراد اهل الحيرة اخذ الف ناقة كانوا قد اعطوه اياها يوم ولد عليهم « لا واللات والعُزّى لا يؤخذ مما كان في يد زيد تفرقٌ . » [٣] وقد جمع شاعر الحيرة عدي بن زيد في قسمه بين مكة والصليب في قصيدة نظمها في سجنه يوم القاه فيه النعمان : [٤]

سَمَى الاعداء لا يألون شرًّا عليك وربِّ مكّةَ والصليب

وحلف عمرو بن عبد الجنّ بالعُزّى وبالنسر وما يضحى عليهما من الضحايا وبقربان المسيح على الهيكل فقال : [٥]

اما ودماءٍ مائرات تخالها على قُلّة العُزّى او النسر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الابيلين للمسيح بن مريما

وجاء في حلف الاخطل القسم بمكة ومناسك الحج [٦]

اني حلفتُ برب الراقصات وما أنحى بمكّةَ من حجب وأستار
وبالهدايا التي اجرَّت مذارعُها في يوم نسك وتشريف وتنحار
وما يزمزم من سمط محلّقةٍ وما يثرب من عونٍ وأبكار

واقسم الاعشى ذاكراً يوم ذي قار قائلاً [٧]

حلفتُ بالملح والرماد وبالـــعُزّى وباللات تـام الحلقة

ومما يسترعي الانتباه في هذه الاقسام ان بعض هؤلاء الشعراء حلفوا بالاصنام والاوثان ومكة في الجاهلية اخذاً بعاداتهم القومية ليس الاّ كما يقال باللاتينية حتى في عهدنا بحق هركل « Mehercle » او بالايطالية بحق بخوس « Per Bacco » . [٨]

واقسمت هند بنت النعمان « بالصليب » لما رفضت المغيرة بن شعبة اذ جاءها خاطباً فقالت له «والصليب» لو علمتُ ان فيّ خصلة من جمال او شباب رغبتك فيّ لأجبتك ولكن اردت

---

(١) الاغاني ٢ : ٢٠ (٢) شعراء النصرانية ٣٣٩ (٣) شعراء النصرانية ٤٠٥
(٤) الاغاني ٢ : ٢٣ (٥) الطبري ٢ : ٣٤ ونسب الاب شيخو في كتابه النصرانية وآدابها ص ٤٠٤ البيت الاول للاخطل وذكر ص ١٩٠ ان البيت الثاني منسوب للاعشى وللاخطل ولابن عبد الجن
(٦) ديوان الاخطل ١١٩ (٧) الاغاني ٢٠ : ١٣٩ (٨) شيخو: النصرانية وآدابها ص ٤٠٤

ان تقول في المواسم ملكتْ ملكة النعمان ونكحت ابنته « فبحق معبودك » اهذا اردتَ . قال اي والله قالت فلا سبيل اليه فقام المغيرة وانصرف [١]

واقسم عدي بن مرينا قبل عهد هند بالصليب والمعمودية قال الاسود بن المنذر قد غشك عدي بن زيد «والصليب والمعمودية» [٢] واقسم حنين ابن بلوع يقول ان صوت ابن سريح ما منع « والصليب والقربان » الاّ في منزلنا وفي سرداب لجدي [٣] وعلى ذكر الحلف بالقربان تقول ان العرب في الجاهلية سمت القربان الشّعر وأقسم به عدي بن زيد [٤]

إذا أتاني نبأ من مُنْذِرٍ لم أُخْنُهُ والذي اعطى الشَّعر

وحلف الأخطل هكذا « قدوس قدوس وحق الصليب» [٥] وحلف في محل آخر «والمسيح» [٦] كما حلف قبله جد جنين الحيري «فورحق المسيح» [٧] وكان يحلف نصارى الحيرة بالله قال عدي بن زيد [٨]

إني « والله » لأقبل حَلْفي لأبيلٌ [٩] كلّما صلّى جأرْ

وحلف قصير بن سعد للزباء يوم قصدها وهو أجدع قائلاً « ورب البشر» ما كان على ظهر الارض أنصح لخدمة جذيمة مني [١٠]

وكانوا يقسمون بكتاب الله فهذا زيد بن عدي النصراني يقول [١١]

ناشدتُنا « بكتاب الله » حُرْمتَنا ولم تكُن بكتاب الله ترتفع

* * *

ومن عادة الحيريين للتوثيق من قسمهم انهم يحلفونهُ في البيعة وقد قام بهذا كل من عدي ابن زيد وعدي بن مرينا واليك رواية الاغاني [١٢] . . . وقام عدي بن زيد الى البيعة فحلف ان لا يهجو عدي بن مرينا ابداً ولا يبغيه غائلة أبداً فلما فرغ عدي ابن زيد قام عدي بن مرينا وحلف ...

نقف عند هذا الحدّ في موضوعنا راجين أن نتوفق الى الاسهاب فيه عند طبعنا كتابنا « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

بغداد يوسف غنيمة

(١) الاغاني ٢ : ٣١ (٢) كذلك ٢ : ٢٢ (٣) كذلك ٢ : ١٢١ (٤) شعراء النصرانية ٤٥٢ (٥) الاغاني ٨ : ٨١ (٦) كذلك ٨٢ (٧) كذلك ٢ : ١٢٢ (٨) شعراء النصرانية ٤٥٣ (٩) الايل جبل النصارى وهو ايضاً السيد المسيح (١٠) الاغاني ١٤ : ٧٢ (١١) شعراء النصرانية ٤٧٢ (١٢) ٢ : ١٢٢